مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (39) العدد (1)2017
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (39) No. (1) 2017

علم القيافة عند العرب منذ ما قبل الإسلام حتى نهاية عصر الرسول والخلفاء الراشدون

الدكتورة شكران خربوطلي*
رجاء علي إنجام**

(تاريخ الإيداع 24 / 10 / 2016. قبل للنشر في 14 / 2 / 2017)

□ ملخّص □

اهتم العرب بعلم القيافة، وقد ساعدهم على ذلك طبيعة بلادهم الرملية، التي جعلت منهم رجال متمرسين في تتبع أثار الأقدام على الرمال، سواء أكانت لأفراد قبائلهم، أو لحيواناتهم التي اعتمدوا عليها في قطع القفار، كالجمال والأحصنة، وكذلك من أجل إلقاء القبض على السراق والمجرمين ممن يفرون من وجه العدالة ويتجهون إلى الصحاري هرباً من العقوبات المفروضة عليهم، وعندما جاء الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، عزز مكانة هذا العلم، وأخذ به وشجعه، لذلك عملوا به وأعطوه مكانة متميزة بين العلوم، وهذا ما دل على أن العرب أمة قادرة على تكييف الظروف التي عاشت فيها بما يخدم مصلحتها.

نجح العرب في تطوير علم القيافة، ونجحوا في اثبات نسب من التجأ إليهم، بل ونسبوا كثير من الأبناء ممن اختلف الناس في إلحاق نسبهم، وعمل الصحابة بالقيافة، ولم ينكر أحداً من الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين القيافة، بل عملوا بها وأخذوا برأي القيافة في اثبات النفس.

عمل العرب بتتبع أثر الطير، أو بالاهتداء بالبراري والقفار وهو نوع من القيافة، إلا أن الرسول ﷺ نهى عن بعض الافعال التي كانوا يفعلونه كالتطير بالطيور وأكد أنها من أنواع السحر والكهانة، كما نهى عن بعض العادات كتحريم الزواج في شهر شوال بعد أن تزوج السيدة عائشة في هذا اليوم، أما فيما يتعلق بتقفي الأثر، فقد برعوا فيه واعتمدوه وسنورد أمثلة عديدة في البحث تثبت صحة ذلك.

الكلمات المفتاحية: القيافة، عصر الرسول، الراشدين.

* أستاذة –قسم التاريخ– كلية الآداب و العلوم الإنسانية –جامعة دمشق– سورية
** طالبة دراسات عليا (دكتوراه) –قسم التاريخ– كلية الآداب و العلوم الإنسانية –جامعة دمشق– سورية

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (39) العدد (1)2017
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (39) No. (1) 2017

The science of Arabic Physiognomy since the Pre- Islamic until the of Prophet and caliphs era

Dr. shokran khrbotli*
Raja Ali Enjamm**

(Received 24 / 10 / 2016. Accepted 14 / 2 / 2017)

□ ABSTRACT □

Arabs Care and tracking flag, They have helped them that sandy nature of their country, which made them men well versed in tracking the footprints on the sand, whether members of their tribes, their animals which Relied on cutting as wasteland beauty and horses, and when it came the Prophet peace and blessings, he cemented place of this flag, took and encouraged it, So they worked him and gave him a privileged position among the sciences, this indicates that the Arab nation is capable of adapting the circumstances in which lived it for serves their interest.

The Arabs succeeded in developing the science of tracking, and they succeeded in proving the pedigree of them sought refuge, but also claimed many sons who people disagree with causing their parentage, and the companions worked by tracking , and anyone of Caliphs, companions and followers did not deny it, , but they took by the their opinion about proving the pedigree .

Arab action to trace the bird, or guided by the Prairies and wasteland, this is a kind of tracking, but the Prophet (forbade some acts that they were doing as superstition by birds, he emphasized it as kinds of magic and augury, and forbade certain customs such as prohibition of marriage in October after he married Aisha, on this day, as to pick up the trail, where they excelled and various examples in the research to substantiate that.

*Professor, Department of History, Faculty of Art and humanities, Damascus university, Damascus, Syria.
**Postgraduate student, Department of History, Faculty of Art and humanities, Damascus university, Damascus, Syria

مقدمة:

اهتم العرب بالكثير من العلوم وامتازوا فيها، بما امتلكوا من معرفة وخبرة، فاختصوا بها من بين الأمم، وقد ساعدهم على ذلك طبيعة بلادهم الرملية، ووسائل مواصلاتهم المتمثلة في بعض الحيوانات، مثل: الإبل الذي عرف عندهم بسفينة الصحراء، والأحصنة الأصيلة، لذلك تمرسوا في تتبع الأثر على الرمال، ومعرفة أثار الأقدام، وتمييزها عن بعضها ولو تزاحمت وتراكمت[1]، ولا أدل على ذلك من اعتماد قريش على قائف لتتبع أثر الرسول ﷺ عندما هاجر من مكة إلى المدينة مع صاحبه أبي بكر الصديق، والذي تتبع الأثر حتى وصل إلى غار حراء فقال: انقطع الأثر هنا[2]، وتمرسوا في كيفية الاستدلال بهيئات أعضاء الانسان للاستدلال على النسب والولادة وسائر أحوالهم الشخصية نتيجة لحذقهم فيه، فقد اعتمدوا عليه كدليل اثبات وعلامة استدلال، حكموا به وعدوه من أشرف أنواع العلوم، فهذا النوع من العلم دل على عبقرية العرب في تكييف الظروف الاستثنائية التي مروا بها عبر العصور في الصحاري والقفار، ولهذا فعلم القيافة تشكل من خلال الإرث الثقافي التراكمي، واعترف به أدبهم كعلم قائم بحد ذاته، فسئل أعرابي عن دليل وجود الصانع سبحانه وتعالى فقال: **((البعرة تدل على البعير، وآثار القدم تدل على المسير))**[3].

أهمية البحث وأهدافه:

كان لهذا العلم أهمية كبيرة في حياة المسلمين، برعت فيه قبائل بأكملها في الجاهلية والإسلام، وبالرغم من أهمية هذا العلم لم نجد إلا دراسات بسيطة قُدمت حول هذا الموضوع، ووجدت ضمن دراسات تتعلق بعلم الفراسة، فكان لابد من كتابة بحث يقدم فكرة وافية عن علم القيافة، ومن برع فيه من العرب، وما هو موقف الرسول منه، ومن ثم موقف الخلفاء الراشدين، وكيف عمل العرب على تطوير هذا العلم بما يتناسب مع التطورات التي شهدتها الدولة الإسلامية بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى.

طرائق البحث ومواده:

لإنجاز هذا البحث كان لابد من العودة إلى مجموعة من المصادر التاريخية والفقهية والأدبية و كذلك المراجع العربية التي احتوت معلومات حول هذا الموضوع، ومن ثم دراستها واستنباط ما يناسبه من مادة علمية، ومن ثم تحليلها للوصول إلى الحقيقة التاريخية

علم القيافة عند العرب:

قال النبيﷺ: **((أنا رسول الملحمة أنا المقفى والحاشر بعثت بالجهاد ولم أبعث بالزراع)**[4]، لكن علم القيافة عنده كان بوحي من الله عز وجل، وقد ورد في القرآن الكريم بمعنى الإتباع، قال تعالى: ((ولا تقف ما ليس لك به

---

[1] برو(توفيق)، *تاريخ العرب القديم*،(دار الفكر، سوريا 2001م، ط2)، ص278.

[2] ابن خلدون(عبد الرحمن بن محمد)، *تاريخ ابن خلدون*، تحقيق، خليل شحادة، (دار الفكر، بيروت1988م، ط2)، ج2، ص421.

[3] ابن عجيبة(الحسني الأنجري)، *البحر المديد في تفسير القرآن المجيد* ، تحقيق أحمد عبد الله القرشي رسلان، (القاهرة1419هـ)، ج1، ص333.

[4] ابن شبة(النميري البصري)، *تاريخ المدينة* ، تحقيق علي محمد دندل وياسين سعد الدين بيان، (دار الكتب العلمية، بيروت 1996م)، ج1، ص334.

علم))[1]، وفي الاصطلاح عرفها القيافة هي الاستدلال بهيئة الإنسان وشكله على نسبه، والملاحظ في هذين التعريفين أن القيافة علم مختص بمعرفة نسب شخص ما فيلحق به، ويعتمد في ذلك على الاستدلال بالهيئة والشكل من حيث الشبه، للتعرف على سمات من يراد إلحاقه بنسبه قياساً على الملحق بهم، والتعريف بهذا يجعل القيافة قاصرة على معرفة النسب فقط، بالاعتماد على ظاهرة الشكل، وهو تعريف قاصر لا يفي بما نحن بصدده، فالقيافة أوسع من هذا التخصص، وقد جاء في أبجد العلوم: ((أن القيافة على قسمين: قيافة البشر، وقيافة الأثر))[2].

لم تقتصر قيافة البشر على الاستدلال الظاهري فحسب، وإنما اتجهوا إلى النظر في الأخلاق والأحوال، فقال الماوردي: ((فَالْمُعْتَبِرُ فِيهَا التَّشَابُهُ مِنْ أَرْبَعَةِ أوجه أَحَدُهَا: تَخْطِيطُ الْأَعْضَاءِ وَأَشْكَالُ الصُّورَةِ، والثَّانِي: فِي الْأَلْوَانِ وَالشُّعُورِ، وَالثَّالِثُ: فِي الْحَرَكَاتِ وَالْأَفْعَالِ))[3]، وأما قيافة الأثر: فيقال لها العيافة وهو علم باحث في تتبع آثار الأقدام والأخفاف والحوافر وكل ما يستدل به على الحيوانات الضالة أو السراقين والمجرمين الفارين من وجه العدالة وغيرهم[4]، وهناك نوع آخر من العيافة وهي زجر الطير والاعتبار بأسمائها وأصواتها تشاؤماً وتفاؤلاً، وهذا المعنى منهى عنه لما ورد في صحيح ابن حبان((العيافة والطيرة والطرق من الجبت)) [5]، أي أن هذه الأعمال من ضروب السحر لا خير فيها وقد عدها الرسولﷺ من الأعمال المنهى عنها، ذلك لأن العرب كانوا يسألون عن ضوالهم والمسروق من متاعهم العرافين[6].

ورد مصطلح قيافة البشر في التراث العربي لتفسير التشابه بين الخلف والسلف، والقيافة اسم مشتق من القفو لأنه يقفو الأشياء أي يتبعها، قال علماء اللغة: ((يَقْفُو ويَقُوفُ ويَقْتافُ أَي يَتَتَبَّع الأَثر، وقالَ ابنُ الأَعْرابي: قَفَوْتُ فُلاناً: اتَّبَعْت أَثَرَه، وفي نوادِرِ الأَعْراب: قَفَا أَثَرَه أَي تَبِعَه)) [7]، وأصل القيافة هي ضرب من ضروب البحث، وإلحاق النظير في الأغلب بنظيره من حيث تساويهما، فالقائف يقارب بين الهيئات فيحكم لأقرب صورة [8]، وجاء لدى ابن قتيبة: ((أن القائف الذي يتبع الآثار ويعرفها ويعرف شبه الرجل بأخيه وبأبيه)) [9]، والقيافة اختص بها العرب دون سائر الأمم، بينما يرى المسعودي أنها خاصة في العرب منها الفطن والمتدرب الظن[10].

---

(1) الإسراء، الآية 36.

(2) القنوجي(أبو الطيب صديق خان) ، *أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم* ، تحقيق عبد الجبار زكار، 0 دار الكتب العلمية ، بيروت1978)، ج2، ص436.

(3) الماوردي(أبو الحسن علي البصري) ، *الحاوي الكبير* ، تحقيق علي محمد معوض –عادل أحمد عبد الموجود، (دار الكتب العلمية، بيروت 1999م، ط1)، ج17، ص387.

(4) القنوجي، أبجد العلوم، ج2، ص358.

(5) ابن حبان (محمد البستي) ، *صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان* ، تحقيق شعيب الأرناؤوط، (مؤسسة الرسالة، بيروت 1994م، ط2)، ج13، ص502.

(6) ابن سالم المشعبي(عبد المجيد)، *التنجيم والمنجمون وحكم ذلك في الإسلام* ، (أضواء السلف، الرياض1998م، ط2)، ص320.

(7) ابن منظور(محمد بن مكرم)، *لسان العرب* ، (دار صادر، بيروت، د.ت، ط 1)، ج15، ص192. الزبيدي(محمد بن محمد مرتضى)، *تاج العروس*، تحقيق مجموعة من المحققين، (دار الهداية)، ج39، ص327.

(8) المسعودي(أبو الحسن علي)، *مروج الذهب ومعادن الجوهر* ، تحقيق، أسعد داغر، (دار الهجرة، 1409هـ)، ج2، ص302.

(9) ابن قتيبة(أبو محمد عبد الله الدينوري) ، *غريب الحديث* ، تحقيق عبد الله الجبوري، (مطبعة الغاني، بغداد1397م، ط1)، ج2، ص519.

(10) *مروج الذهب* ، ج2، ص302.

ورد ثبوت القيافة في السنة النبوية، ذلك أن الرسول ﷺ أخذ بقيافة مجزز المدلجي [1] في اثبات صحة نسب أسامة بن زيد [2] عندما شكك كفار قريش بذلك [3]، وقد اشتهر بقيافة البشر قوم من العرب يقال لهم بنو مدلج يعرض على أحدهم مولود في عشرين امرأه فيهن يلحقه بها [4]، وهناك من يضيف بني أسد فضلا عن بني مدلج بن مرة بن عبد مناف بن كنانة ممن اعترف لهما العرب بالقيافة، ورويت عن قيافة البشر قصص منها ما حكى عن بعض التجار: ((ورثت من أبي مملوكا أسود شيخا، فكنت في بعض أسفاري راكبا على بعير والمملوك يقوده، فاجتاز علينا رجل من بني مدلج أمعن فينا نظره، وقال: مَا أَشْبَهَ الرَّاكِبَ بِالْقَائِدِ قَالَ فَرَجَعْت إلَى أُمِّي فَأَخْبَرْتهَا بِذَلِكَ فَقَالَتْ صَدَقَ إنَّ زَوْجِي كَانَ شَيْخًا كَبِيرًا ذَا مَالٍ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ فَزَوَّجَنِي بِهَذَا الْمَمْلُوكِ فَوَلَدْتُك ثُمَّ تَكَنَّى وَاسْتَلْحَقَك)) [5]، وفي هذا دليل على أن العرب كانت تحكم بالقيافة، وتفتخر بها وتعدها أشهر العلوم التي برعوا فيها.

ضرب العرب بعلم القيافة بسهم وافر، وهذا لم يتسن لغيرهم من الشعوب الأخرى، وأن شاركتهم فيه إلا ذلك كان نادراً جداً، حيث كان هذا العلم موجوداً في قبائل العرب ويندر في غيرهم، ويقول المسعودي عن القيافة والعيافة أن هذه المعاني من خواص ما للعرب، وما تفردت به دون سائر الأمم في الأغلب منها [6]، وكان يقال أن أمة محمد ﷺ قد برعت في ثلاثة علوم: ((القيافة والعيافة والسياقة))[7].

وجدت أسباب دفعت العرب لتطوير علم القيافة والاهتمام به، فكان هذا راجع إلى طبيعة البيئة العربية التي تعاني من ندرة مائها، وصعوبة دروبها ومسالكها، واتساع بيئتها الصحراوية التي أدت إلى وجود قطاع الطرق واللصوص، هذا بالإضافة إلى ضياع دوابها، وهذا ما أكده شوقي ضيف بقوله: ((طبيعي أن تكون عندهم القيافة ليتعقبوا من يضل منهم في الصحراء، أو ليتعقبوا الأعداء الذين يغيرون عليهم وينهبون أموالهم ونساءهم في غيبتهم عن أحيائهم))[8].

([1]) مجزز المدلجي :هو مجزز بن الأعور بن جعدة بن معاذ بت عتوارة بن عمرو بن مدلج بن مرة بن كنانة بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، المدلجي الكناني ، صحابي وقائف مشهور ، استخدمه النبي لإثبات أبوة زيد بن حارثة لابنه أسامة، وشهد كذلك فتح مصر، وسمي بمجزز لأنه كان إذا أسر أسيراً جز ناصيته وأطلقه.

انظر : العسقلاني(ابن حجر)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود،(دار الكتب العلمية. بيروت، 1415هـ)، ج5، ص575- 576.

([2]) اسامة بن زيد بن حارثة الكلبي، هو وأبوه صحابيان، وكنيته أبو محمد، وأمه أم أيمن حاضنة الرسول عليه الصلاة والسلام، ولد في الإسلام ومات النبي عليه السلام وله عشرون سنة ، وكان قد سكن المزة، من أعمال دمشق، ثم رجع وسكن وادي القرى ثم نزل إلى المدينة فمات بها بالجرف، وكان الرسول عليه السلام قد ولاه قيادة جيش المسلمين المتوجه لغزو الروم في الشام، وعند وفاة الرسول أقره الخليفة أبو بكر عليه وأرسله إلى الوجه التي و جهه الرسول إليها، وبالفعل رجع منتصراً كما شارك في حروب الردة والفتوحات التي تلت وكان عمر يجلّه ويكرمه، وفضّله في العطاء على ولده عبد اللّه بن عمر، واعتزل أسامة الفتن بعد قتل عثمان .

انظر: العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ج 1، ص202- 203.

([3]) الصفدي (صلاح الدين خليل) ، *الوافي بالوافيات* ، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، (دار أحياء التراث، بيروت 2000م)، ج 8، ص242.

([4]) الثعالبي(أبو منصور عبد الملك)، *ثمار القلوب* ، (دار المعارف، القاهرة1965م، ط1)، ج1، ص120- 121.

([5]) الشرواني(عبد الحميد المكي)، *حواشي الشرواني*،(دار الفكر، بيروت)، ج10، ص348.

([6]) مروج الذهب، ج2، ص145.

([7]) ابن دقيق العيد، *إحكام الأحكام*، تحقيق مصطفى شيخ مصطفى - مدثر سندس،(مؤسسة الرسالة، 2005م، ط1)، ج1، ص417.

([8]) ضيف(شوقي)، *تاريخ الأدب العربي*،(دار المعارف، القاهرة)، ج1، ص85.

كان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قائفاً وهو قرشي، وهو ليس مدلجياً ولا أسدياً [1]، وبالتالي يتبين لنا أن علم القيافة عند العرب لم يقتصر على بنو مدلج وبنو أسد، و ليس حكرا عليهم دون غيرهم من العرب كما حاول بعض المؤرخين أن يروجوا.

واختلف العرب في قبول الاعتراف بعلم القيافة في اثبات النسب فالبعض منهم أنكره، وبعضهم وافقوا عليه، وأخذوا بحديث عن ابن عباس وعلي بن أبي طالب وأبي موسى رضي الله عنهم من الصحابة الموثوق بهم.

وقد اثبتت السيدة عائشة صحة القيافة، عندما روت بأنها دخلت على الرسول ﷺ، ذات يوم فوجدته مسروراً فقال: ((يَا عَائِشَةُ أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ مُجَزِّزًا الْمُدْلِجِيَّ دَخَلَ عَلَيَّ فَرَأَى أُسَامَةَ، وَزَيْدًا، عَلَيْهِمَا قَطِيفَةٌ، قَدْ غَطَّيَا رؤوسهما وَقَدْ بَدَتْ أَقْدَامُهُمَا، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْأَقْدَامَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ))[2].

برع مجزز المدلجي بالقيافة واثبات النسب، فكان عالماً فيه، وعلى درجة كبيرة من الإلمام والمعرفة، وبالتالي لم يرفض الرسولﷺ ما قاله في اثبات نسب أسامة، ولم ينهاه عن عمله، وذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقِيَافَةَ حَقٌّ، كما أنس وسُر – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لأَنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا يَطْعَنُونَ فِي نَسَبِ أُسَامَةَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ طَوِيلًا أَسْوَدَ أَقْنَى الْأَنْف وَكَانَ زَيْدٌ قَصِيرًا بَيْنَ السَّوَادِ وَالْبَيَاضِ أَخْنَسَ الْأَنْفِ وَكَانَ طَعْنُهُمْ مُغَايَظَةً لَهُ[3]، فعندما نظر إلى الأقدام ولم يعرف أصحابهما حكم حكم بنسبة هذه إلى تلك، فقال: ((بعضها من بعض)) اعتماداً على الشبه، وأن اختلفا في اللون، فإن زيداً كان أبيض وأسامة كان أسود، والمعروف أن ما يعرفه المدلجي لم يكن بوسع أحد أن يدركه وهي خيوط الخيال دقيقة وسمات الشبه لا يدركها إلا علم القيافة، وخبير بتتبع الآثار.

كما ظهر علم القيافة عند ظهور أول حادثة لعان في الإسلام، حيث قذف هلال بن أمية أمرأته بشريك بن سمحاء، وعندما اتجهوا إلى الرسول للقضاء فيما بينهم قال عليه السلام: ((أبصروها فَإِن جَاءَت بِهِ أكحل الْعَيْنَيْنِ سابغ الأليتين خَدلج السَّاقَيْن فَهُوَ لِشَرِيك بن سمحاء)) فجاءت به على الشبه الذي رميت به، فقال الرسولﷺ: ((لَوْلَا مَا مَضَى مِنْ كِتَابِ اللَّهِ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ))[4].

فالقيافة هنا لا تعدم أي حجة شرعية، وهنا كان الشبه بين الولد وأبيه، فاللعان له حكماً خاصاً شرعه الله في مثل هذا الرجل الذي رمى زوجته لقوله تعالى: ((وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ))[5]، لولا ذلك لما أمكن العمل بالقيافة.

وكان الرسول عالم بالقيافة، فعندما سأله عبد اله بن سلام[1] ((وَمَا بَالُ الوَلَدِ يَنْزِعُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ؟، أَمَّا الوَلَدُ الوَلَدُ فَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ المَرْأَةِ نَزَعَ الوَلَدَ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ المَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ نَزَعَتِ الوَلَدَ)) ولكن هذا العلم علمه له جبريل عليه السلام[2].

---

[1] ابن حجر العسقلاني(أبو الفضل أحمد بن علي)، *فتح الباري*، تقيق محمد فؤاد عبد الباقي، إخراجه وتصحيح محب الدين الخطيب، تعليق عبد العزيز بن عبد الله بن باز، (دار المعرفة، بيروت1379هـ)، ج12، ص57.

[2] ابن ماجة(أبو عبد الله محمد القزويني)، *سنن ابن ماجة*، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي_ فيصل عيسى البابي الحلبي،(دار إحياء الكتب العربية)، ج2، ص787.

[3] أبو يحيى السنيكي(زكريا بن محمد)، *الغرر البهية في شرح البهجة الوردية* ، (المطبعة الميمنية، د.ت)، ج3، ص 415.

[4] العيني(بدر الدين)، *عمدة القاري*،(دار أحياء التراث، بيروت)، ج13، ص250.

[5] النور، الآيات(6-9).

علم عن الرسولﷺ فراسته ومن ذلك، عندما أتى رجل إليه يشكوا له سواد بشرة ولده ظناً منه أن زوجته قد زنت به، ففسر له الرسول ﷺ بأنها نزعة عرقية مستنداً إلى مهنة الرجل وهي تربية الإبل، عندما نبهه إلى اختلاف ألوان الإبل عنده، والتي قد تكون نزعة عرق أي وراثة من الأجداد، أو طفرة عرقية[3].

ولم ينكر الخلفاء الراشدون علم القيافة، وعلى رأسهم الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب الذي أخذ بحكم القائف، وخاصة بعد أن وصفته المصادر بأنه كان هو الآخر قائفاً، وذلك حين اختصم رجلان عنده في ولد، فدعا لهما القائف فقضى برأيه، وأنفذ حكمه، وكان جميع الصحابة حاضرون، فلم ينكر أحد ذلك، ولو خالف أحدهم لعلم بذلك، فكان هذا إجماعاً على الأخذ برأي القافة[4].

ارتبطت القيافة بعلم الفراسة أو التوسم أو العمل بالقرائن والأمارات بسبب التداخل فيما بينها، فقد سمحوا الأخذ بالأمارات والعلامات، وعدوها أدلة مرتبطة بعضها ببعض، كما جاء في قوله تعالى: ((وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ على مَا تَصِفُونَ))[5]، فالقيافة هي الفراسة وهي التوسم وهما شيء واحد، فقد ذكر الألوسي: ((التوسم النظر من القرن إلى القدم، واستقصاء وجوه التعريف))[6]، وقال الشاعر[7]:

أو كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا إلى عريفهم يتوسم

وقد روى أحد الصحابة في الرسولﷺ[8]:

إني توسمت فيك الخير أعرفه والله يعلم أني ثابت البصر.

يتبين لنا من خلال ذلك أن الخلفاء الراشدين قد تميزوا بالفراسة، فقد جاء عند الزمخشري: ((أفرس الناس ثلاثة، بنت شعيب، وصاحب يوسف، وأبو بكر في عمر)) [9]، وبراعتهم تتعلق بفراستهم بالبشر، فهم لا يقفون عند ظاهر الأمور بل كانوا يغوصون في أعماقهم محللين باحثين عن اليقين الذي لا يتعدى حدود الله، ويلبي متطلبات العرب.

ويستخلص مما سبق أن فراسة القيافة كانت منحصرة في أكابر القوم، فهي بمثابة عقيدة اجتماعية ترافق الإنسان العربي عبر العصور، فهو لا يمكنه الاستغناء عنها خاصة في سياسة الحكم واتخاذ القرارات، فهذا رجل يقصد

([1]) عبد الله بن سلام ابن الحارث، الإِمَامُ الحَبْرُ، المَشْهُوْدُ لَهُ بِالجَنَّةِ، أَبُو الحَارِثِ الإِسْرَائِيْلِيُّ، حَلِيْفُ الأَنْصَارِ، مِنْ خواصِّ أَصْحَابِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ بنُ سَلاَمٍ قَبْلَ وَفَاةِ رَسُوْلِ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِعَامَيْنِ. فَهَذَا قَوْلٌ شَاذٌّ مَرْدُوْدٌ بِمَا فِي "الصَّحِيْحِ" مِنْ أَنَّهُ أَسْلَمَ وَقْتَ هِجْرَةِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَقُدُوْمِهِ.

انظر: الذهبي(شمس الدين)، سير أعلام النبلاء، (دار الحديث، القاهرة، 2006م)، ج4، ص59– 65.

([2]) البخاري(محمد بن إسماعيل) ، *الجامع المسند الصحيح* ، المحقق، محمد زهير بن ناصر الناصر، (دار طوق النجاة، 1422هـ)، ط1، ج5، ص69.

([3]) مسلم(أبو الحسن القشيري)، *المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم* ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي،(دار إحياء التراث العربي، بيروت)، ج2، ص1137.

([4]) الزحيلي(وهبة)، *الفقه الإسلامي*،(دار الفكر، دمشق، ط4)، ج10، ص8– 9.

([5]) يوسف، آية18.

([6]) (شهاب الدين محمود)، *روح المعاني*، (دار أحياء التراث، بيروت)، ج14، ص74.

([7]) ابن دريد(أبو محمد الازدي)، *جمهرة اللغة* ، تحقيق رمزي منير بعلبكي،(دار العلم للملايين، بيروت1987م، ط1)، ج1، ص372.

([8]) ابن عساكر(أبو القاسم علي)، *تاريخ دمشق*، تحقيق عمرو بن غرامة العمراوي،(دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت1995م)، ج2، ص6.

(9) الزمخشري(أبو القاسم محمود)، *الكشاف*، تحقيق عبد الرزاق المهدي،(دار إحياء التراث العربي، بيروت)، ج3، ص408.

القاضي إياس[1] ويقول له: ((علمني القضاء، فرد إياس بل قل فهمني القضاء فإنه فهم لا علم)) [2]، وهكذا تعامل الحكام مع العلامة الظاهرة من حيث هي علامة داله على حقيقة حسية تحيل إلى علامة دالة على حقيقة مجردة غائبة[3].

امتاز الخليفة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بفراسة القيافة، حتى أنه فاق الخليفة عمر بن الخطاب في هذا العلم، وذلك عندما سأل رجلاً عن حاله، فقال: ((ممن يحب الفتنة ويكره الحق، ويشهد على ما لم ير"، فسجنه، غير أن فراسة علي بن أبي طالب كانت أنفذ من فراسة عمر في هذا الموقف، فما كان منه إلا أن طلب من عمر رد الرجل قائلاً: أنه صدق، فقال عمر: وكيف صدقته؟ قال يحب المال والولد، وقال تعالى: ((**أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ**))[4] ويكره الموت وهو الحق من عند الله ويشهد أن محمد رسوله ولم يره، فأمر الخليفة عمر برده قائلاً الله أعلم حيث يجعل رسالته))[5].

وصل علي بن أبي طالب لهذه النتيجة لعدم وقوعه في خدعة العلامات الظاهرة، بحيث نفذ إلى باطن العلامات، وبالتالي انتقل من صعيد العبارة إلى صعيد المحتوى أو بتعبير أخر النفاد من المستوى التقريري للعبارة إلى المستوى الإيحائي[6].

اختلفت **أدوات ووسائل متفرس القيافة** في الوصول إلى المعنى، ومن هذه الوسائل، وسائل لفظية وغير لفظية في خمسة أشياء لا تزيد ولا تنقص، أولهما اللفظ ثم الإشارة ثم العقد ثم الخط ثم الحالة الدالة التي تسمى نصبة، والنصبة هي تلك الحالة الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقصر عن تلك الدلالات كل علامة توصل إلى علامة أخرى وهكذا دواليك حتى يتم الوصول إلى مسير جميع العلامات ألا وهو الله، أما الاشارة فهي تتسع جميع أشكال السلوكيات الحركية كتعابير الوجه والعينين والحركات الجسدية والأوضاع البدنية الدالة، رأى الجاحظ أن مصطلح الإشارة مقابلا لمصطلح العبارة، لكونه يتضمن الإشارات والإماءات والحركات الجسمية وتعبيرات الوجه والعينين وغيرها[7]، وبالتالي عدت الفراسة من هذه الوسائل اثنتان : الإشارة والنصبة[8].

درس العرب وحللوا كل ما له علاقة بفهم الآخر والتواصل معه، فجاءت نتائجهما على درجة عالية من الدقة والإحكام، وعملوا فيها في مجال الحكم والقضاء، فالفراسة علم يمكن اكتسابه بعد الالتزام بمعرفة وفهم ما سبق ذكره من

([1]) القاضي إياس بن معاوية بن مرة المزني ولد سنة 46هـ، ولجد أبيه صحبة مع الرسول عليه السلام، يكنى بأبي واثلة ويلقب بعدة ألقاب منها القاضي، والمزني، والبصري، كان إياس أحد القضاة في الإسلام في العصر الأموي، صاحب فراسة وذكاء وأحد الفقهاء والمجتهدين جمع بين أصول الفقه والتشريع الإسلامي، وأخذ الفقه والتفسير على يد كبار علماء البصرة وعلى ر أسهم الحسن البصري.

انظر: جهينة مصطفى، د. صالح حسن عبد الشمري، القاضي الذي صاحب الفراسة إياس بن معاوية بن مرة المزني البصري، مجلة تكريت للعلوم، جامعة تكريت، كلية التربية، مج19، 48، آب، 2012م، ص178- 1195.

[2] ابن عساكر، *تاريخ دمشق*، ج10، ص30.

[3] ابن عساكر، *تاريخ دمشق*، ج56، ص377. ابن فرحون(إبراهيم بن علي اليعمري)، *تبصرة الحكام في اصول الاقضية ومناهج الحكام*، (مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة1986م)، ط1، ج2، ص135.

[4] الأنفال، آية28.

[5] ابن عبد المحسن السلمان(عبد العزيز بن محمد) ، *موارد الظمآن لدروس الزمان* ، (طبع على نفقة جماعة من المحبين للخير، الموكل عنهم، إبراهيم بن علي العودة، 1424هـ، ط30)، ج4، ص9.

[6] رولان برث، *مبادئ في علم الأدلة* ، ترجمة محمد البكري، (دار قرطبة للطباعة والنشر، المغرب)، ص135- 137.

[7] الجاحظ(عمرو بن بحر)، *البيان والتبيين*،(دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423هـ)، ج1، ص11.

[8] الجاحظ، *البيان والتبيين*، ج1، ص11-12.

دلالات يستخلصوها من شكل ولون الجسم وحركة الأعضاء إلا أن العلامات لا تبق كما هي وإنما تتغير مع تغير العصور.

كل ذلك يدل على أن العرب اهتموا بهذا العلم لما له من أهمية في حياتهم وعقائدهم، فاستطاعوا استنطاق الدلالات، ووظفوا الأمارات، التي لها أن تكشف كل أسرار الإنسان النفسية الباطنية انطلاقاً من فهم ظاهره وسحناته.

وقد وجب على مقتفي البشر بالإضافة إلى معرفة دلالات أعضاء الجسم أن يكون ملم ببعض الأساسيات مثل أثر الأغذية والهواء والأمزجة على الأخلاق، ومثال ذلك ما روي عن الحارث بن مرة [1] حين قال: ((أنه أخبر عن أياس بن معاوية أنه نظر إلى رجل فقال عنه: هذا رجل غريب وهو من أهل واسط، فسألوه عن حجته فيما قال فرد: رأيته يمشي ويلتفت فعلمت أنه رجل غريب ورأيته وعلى ثوبه حمرة وهو لون تربة واسط فعلمت أنه من أهلها، ورأيته يمر بالصبيان ويسلم عليهم ولم يسلم على الرجال، فعلمت أنه معلم))[(2)].

وتدخل في دائرة الأخلاق عموماً تلك التي تعد نتاجاً عن السحنات، وهو الأمر الذي يمكنه من الاستدلال بها للوصول إلى الأحوال الباطنة، حيث اعتمد القافي هنا في الوصول إلى النتيجة الصحيحة على البيئة الاجتماعية والإطار العام للمجتمع الذي قدم منه الغريب، والمجتمع الذي يعيش فيه القافي مكنه من الوصول إلى الحقيقة، حيث استدل إياس أن تلفت الغريب حول المكان، يعني جهل الغريب للمكان الذي يتواجد فيه، وأن وجود اللون الأحمر على ثيابه دليل على موطنه الأصلي، فالحمرة هي لون التراب لمدينة واسط، وهي المدينة التي قدم منها والتي تمتاز بالتراب الأحمر، وبالتالي اعتمد القافي على القياس إذ ربط وقاس كل قرينة على الأمارة التي تقابلها.

وبذلك نستطيع القول أن الرسول ﷺ وخلفائه من بعده حكموا من بعده بالقافة، وجعلوها دليلاً من أدلة ثبوت النسب، ولكن هذا الأمر ليس بالأمر الهين، ومع ذلك فقد جعل الرسولﷺ هذا الأمر منوطاً بالقافة التي تقوم على فطنة القافي وحذقه، بحيث أنه يبني حكمه على مجرد قراءة الأمارات والعلامات الظاهرة لا أكثر، ولإثبات مصداقية وجدوى هذا الحكم قال بعض الفقهاء: أنه من العجب إنكار لحوق النسب بالقافة التي أخذ بها الرسول ﷺ وعمل بها الصحابة من بعده، وحكم عمر بن الخطاب بها[(3)].

اهتم العرب أيضا بمعرفة **نزول المطر** من عدمه، أي التنبؤ بالطقس، والسبب الذي دفعهم لمعرفة أحوال البرق والرعد، ومتى يكون السحاب محملاً بالمطر أو غيم غير ماطر؛ هو حاجتهم الماسة لنزول المطر نتيجة لطبيعة بلادهم الصحراوية، وهكذا وقفوا على ضوابط تلك الأحوال، فأدركوا أنه متى حصلت الهيئة الموصوفة أو ظهر الشكل المتفق عليه نزل الغيث بإذن الله، كما أنهم راقبوا السحاب لمعرفة رقته من كثافته وكذلك لونه واتجاه الرياح هل هي شرقية جافة أو غربية ماطرة؛ وبهذا تحصل لهم المعرفة ، وقد جاء في غريب أبي عبيدة أن الرسول ﷺ سأل عن سحابة مرت فقال كيف ترون قواعدها وبواسقها، ثم سأل عن البرق أجفوا أو رميضاً أم يشق شقا؟ فقال: بل يشق شقا، فقال رسول

([1]) هو الحارث بن مرة الجهني، كان من كماة الصحابة وفرسانهم، وهو أخو عمرو بن مرة الجهني الملقب ب أسد جهينة، شيخ جهينة وزعيمها في الجاهلية كان للحارث بلاء عظيم في فتوح العراق وبلاد فارس وكان قائد قضاعة في معارك القادسية وجلولاء ونهاوند وذات السلاسل وغيرها، وقد روى الحديث عن الرسول عليه السلام عند وفاته.

انظر: العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ج 1، ص691.

[(2)] ابن عساكر، *تاريخ دمشق*، ج10، ص31.

[(3)] ابن قاسم(عبد الرحمن النجدي)، *حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع*، (1397هـ، ط1)، ج5، ص528.

اللهﷺ جاءكم الحيا، وبذلك فإن استدلال القدماء بالأحوال الظاهرة عن الأحوال الغيبية ليس إلا عن تجربة تكبدوا فيها عناء شديداً ما جعل أهل البداوة يبلغون الغاية التي لم يدركها أهل الحواضر[1].

وروى سعيد الخدري قول رسول الله ﷺ اتقوا فراسة المؤمن فأنه ينظر بنور الله [2]، وشرح ابن الأثير ذلك بقوله: ((يأتي بمعنيين، أحدهما ما دل ظاهر الحديث عليه وهو ما يوقعه الله تعالى في قلوب أوليائه فيعلمون أحوال بعض الناس بنوع من الكرامات وإصابة الظن والحدس، والثاني: نوع يتعلم بالدلائل والتجارب والأخلاق فتعرف به أحوال الناس[3].

ومن **أنواع فراسة القيافة** : الاستدلال بهيئة الانسان وأشكاله والوانه وأقواله على أخلاقه وفضائله ورذائله [4]، وفسر العرب صفات الإنسان الأخلاقية والعلمية من خلال التفاصيل الجسمانية له (شكل الرأس وطبيعة الشعر وتفاصيل الوجه من عين وأنف ولون البشرة)، وكان من ذلك الاستدلال بصغر الرأس الخارج عن العادة على صغر العقل وكبره، وبسعة الصدر وبعد ما بين جانبيه على سعة خلق صاحبه واحتماله وبسطته، وبضيقه على ضيق وخمود العين، وضعف نظرها على بلادة صاحبها وضعف حرارة قلبه وبشدة بياضها مع إشرابه بحمرة يدل على شجاعته وإقدامه وفطنته وبتدويرها مع حمرتها وكثرة تقلبها على خيانته ومكره وخداعه [5]، وكذلك الاستدلال بإفراط الشعر في السبوطة (الشعر المسترسل) على البلادة وبإفراطه في الجعودة على الشر وباعتداله على اعتدال صاحبه، وأصل هذه الفراسة أن اعتدال الخلقة والصورة هو من اعتدال المزاج[6].

وعرف العرب التنبؤ من خلال حركات الإنسان منها: إذا اختلجت العين قال: أرى من أحبه، فأن كان غائباً توقع قدومه، وأن كان بعيداً توقع قربه [7]، ولا يقتصر الأمر على العين، وإنما أماكن الفراسة من خلال اختلاج أعضاء الإنسان من الرأس إلى القدم للاستدلال على الأحوال التي ستقع عليه وأحوال نفعه[8].

ومن ضروب فراسة القيافة الزكانة، والزكن من يصدق في فراسته وحدسه [9]، ومن ضروب فراسة القيافة أيضاً النظر في أكتاف الغنم والاطلاع من خلالها على أمور الغيب[10].

وقد برع العرب في تتبع الأثر وهو ما يسمى بالعيافة وهي الفرع الثاني من القيافة ، في حين أن الأولى هي قيافة البشر، فالعيافة محصورة في بعض أنواع الأثار، كمعرفة الأقدام سواء كان ذلك على وجه كشف الجناة، أو سرّاق

---

(1) ابن سلام (أبو عبيد القاسم)، *غريب الحديث* ، تحقيق محمد عبد المعيد خان، (مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد-الدكن1964م، ط1)، ج3، ص104.

(2) ابن فرحون، *تبصرة الحكام*، ج2، ص135.

(3) ابن الأثير (مجد الدين أبو السعادات المبارك)، *النهاية في غريب الحديث والأثر* ، تحقيق طاهر أحمد الزاو ي محمود محمد الطناحي، (المكتبة العلمية، بيروت1979م)، ج3، 428.

(4) الألوسي(محمود شكري) ، *بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب* ، تحقيق محمد بهجة الاثري، (دار الكتاب المصري، القاهرة)، ج 3، ص263. المناوي(زين الدين محمد عبد الرؤوف)، *فيض القدير*، (دار الكتب العلمية، بيروت1994م، ط1)، ج1، ص143

(5) ابن قيم الجوزي(محمد بن أبي بكر الزرعي) ، *مدار السالكين بين منازل اياك نعبد واياك نستعين* ، تحقيق عدد من المحققين، (دار الصميعي، الرياض2011م)، ج2، ص487.

(6) ابن قيم الجوزي، *مدارج السالكين*، ج2، ص487.

(7) الألوسي، *بلوغ الأرب*، ج2،ص323.

(8) القنوجي، *أبجد العلوم*، ج2، ص29.

(9) مصطفى(إبراهيم وأخرون)، *المعجم الوسيط*، تحقيق مجمع اللغة العربية، (دار الدعوة)، ج1، ص396.

(10) الشنقيطي(محمد الامين بن محمد الجكني)، *أضواء البيان*، (دار الفكر، بيروت1995م)، ج4، ص49.

أو ما كان مجرد معرفة سير قافلة لهم قد ضلت الطريق أو معرفة حوافر الأفراس والأخفاف وغيرها من الحيوانات الشاردة، وبلغ بالعرب أن فرقوا بين أثر قدم الشاب والشيخ وقدم الرجل والمرأة [1]، بل وحتى تجاوزوا ذلك لمعرفة أن صاحب الاثر أعمى أو بصير، أحمق أو كيس[2].

ولم يكن العرب بارعين في تقفي الأثر على الرمل والتراب والطين فحسب، بل كانوا يقفون آثار الأقدام على الحجر الصلد، والصخر الصم، فقد استطاع قريشيّاً أن يقف أثر النبي ﷺ حين خرج مهاجراً مع صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فوصل القائف إلى فم الغار الذي حجبه الله عنهم بقدرته، فكان القائف وخبير هذا الفن يرى على الصلد ما لا يرون، ويشاهد على الصوان ما لا يشاهدون[3].

فالقائف هنا يعتمد على فراسته وفطنته، وقوة ملاحظته، وسعة حفظه، وخياله، لمعرفة الأثر بالنظر والصوت بالسمع، والرائحة بالشم، ولكل هذا أصل في الشريعة الإسلامية سواء اختلف الفقهاء بالقضاء بمقتضاها أو عدوها سنداً يبحث فيه دليل آخر لتوثيق العمل بموجبه[4].

وقد ظهر علم تتبع الأثر عند العرب ومهاراتهم فيه في حديث العرنيين، الذين قدموا إلى المدينة المنورة وتكلموا بالإسلام، وبقوا فيها إلى أن أصيبوا بمرضٍ، فأمرهم الرسول ﷺ أن يخرجوا إلى إبل الصدقة ليشربوا لبنها، فانطلقوا حتى وصلوا إلى الحرّة، فعادوا إلى كفرهم، وقتلوا راعي الرسول ﷺ وسرقوا أبله، فبعث النبي ﷺ في طلبهم قافة، ((فأوتي بهم، فدل على اعتبار القافة والاعتماد عليها في الجملة، فاستدل بأثر الأقدام على المطلوبين، وذلك دليل حسن على اتحاد الأصل والفرع))[5].

يتبين أن العمل بالقافة في تتبع أثار الجناة يشهد لها الشرع بالاعتبار، إلا أنه لا يجوز من الناحية الشرعية الاعتماد عليها في الحكم إذ هي عرضة للكثير من الاحتمالات، والدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال[6].

أما السبب الذي دفع العرب لتعلم قيافة الأثر هو قلة الدلالات المكانية فيها التي تمكنهم من الاهتداء بها إلى آثار من يريدون اقتفائه سواء أكان أثر انسان أو أثر دابة ضلت أو تاهت عن صاحبها، بالإضافة إلى أنها تعينهم إلى معرفة الطريق الذي ينبغي عليهم أن يسلكوه خلال رحلاتهم التجارية أو الحج، وخاصة كثرة الرمال المتحركة المتواجدة في الصحراء والتي قد تؤدي إلى فنائهم.

وعرفوا ضرباً آخر للقيافة: **هو الاهتداء بالبراري والإقفار** ، وذلك بالتعرف على الأمكنة من غير دلالة عليه بالإمارات المحسوسة دلالة ظاهرة بل خفية، لا يعرفها إلا من تدرب فيه، كالاستلال برائحة التراب، وسمة الكواكب الثابتة، ومنازل القمر، إذ لكل بقعة رائحة مخصوصة، ولكل كوكب سمة يهتدى به[7].

---

(1) القنوجي، *أبجد العلوم*، ج2، ص437.

(2) الهاشمي(أحمد بن إبراهيم)، *جواهر الأدب في ادبيات وانشاء لغة العرب* ، تحقيق لجنة من الجامعيين، (مؤسسة المعارف، بيروت)، ج2، ص23.

(3) المسعودي، *مروج الذهب*، ج2، ص149- 150.

(4) بلمهدي(يوسف)، *أحكام القيافة وتتبع الأثر* ، (مجلة المعارف، العدد الثامن، جوان2010م)، ص 323.

(5) ابن القيم(محمد بن أبي بكر)، *الطرق الحكمية* ، (مكتبة دار البيان، د.ط، د.ت)، ج1، ص 183. ابن محمد الفائز (إبراهيم)، *الإثبات بالقرائن في الفقه الإسلامي*،(بيروت1403هـ)، ص186.

(6) الركبان(عبد الله العلي)، *النظرية العامة لإثبات موجبات الحدود* ، ج2، ص281-282.

(7) خليفة(حاجي)، *كشف الظنون*، (مكتبة المثنى، بغداد1941م)، ج1، ص203.

ويتبين من خلال ما تقدم أن هناك اختلاف بين قيافة الأثر والاهتداء في البراري، إذ يتم الأخير استناداً إلى مظهر التربة ورائحة التراب والخصوصيات الطبيعية والمناخية لشتى المناطق، بينما قيافة الأثر تتكون من اقتفاء أثار باطن القدم فوق الأرض.

كما اقتفى العرب أثر الدم، واعتمد النبي ﷺ اثر الدم توسماً في حادثة سلب القتيل على يد معاذ ابن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن عفراء الأنصاريين، عندما ضربا أبا جهل بن هشام يوم بدر بسيفهما حتى قتلاه، فانصرفا إلى الرسولﷺ، فأخبراه فقال: ((أيكما قتله))، فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، فقال: ((هل مسحتما سيفكما))، قالا: لا، فنظر إلى السيفين، فقال: ((كلاكما قتله))، وقضى بالسلب لمعاذ بن عمرو بن الجموح الذي أثخنه، فهو القاتل الشرعي، وإنما قال: كلاكما قتله، تطيباً لقلبهما مع مشاركة بن عفراء له في القتل[1].

كذلك في قصة عبد الله بن أنيس وأصحابه لما دخلوا الحصن على ابن الحقيق ليقتلوه، وكان ذلك ليلاً، فوقعوا عليه بالسيوف، ووضع عبد الله بن أنيس السيف في بطنه وتحامل عليه حتى نبع ظهره فلما رجعوا وقد قتلوه، نظر عليه الصلاة والسلام إلى سيوفهم فقال: ((هذا قتله))، لأنه رأى على السيف أثر الطعن[2].

وهناك نوع اخر من العيافة تتعلق بالحيوان وهي **عيافة الطير**[3]، أي زجر الطير، وهو أن يرى طائراً أو غراباً فيتطير وإن لم ير شيئاً فقال بالحدس، ولكن لم تتفق العرب على أمر السانح والبارح، يتبين ذلك من قول ابن منظور:((العرب تختلف في العيافة، يعني في التيمن بالسانح والتشاؤم بالبارح، فأهل نجد يتيمنون بالسانح، وأهل الحجاز يتشاءمون منه))[4]، والزجر زجر الطير ليتيمن أو يتشاءم بطيرانه، فقد كانَتْ العرب تَعْتَاقُ الطَّيْرَ وَتَزْجُرُهَا تَفَاؤُلًا تَفَاؤُلًا وَتَطَيُّرًا إِذَا أَرَادُوا حَاجَةً أَوْ سَفَرًا فَيَنْفِرُونَ أَوَّلَ طَائِرٍ يَسْفَحُ لَهُمْ، فَإِنْ طَارَ ذَاتَ اليمين قالوا هذا طائر الأيامن فيتيمنوا به، وتوجهوا، وأيقنوا بِالنَّجَاحِ، وَإِنْ طَارَ ذَاتَ الشِّمَالِ قَالُوا هَذَا طير الأشائم فتتشاءموا بِهِ وَعَادُوا مُعْتَقِدِينَ لِلْخَيْبَةِ[5]، وقيل: **((والعائف هُوَ الَّذِي يعيف الطير أَي يزجرها يُقَال عفت الطير أعيفها عيافة أَي زجرتها وعافت الطير الطير تعيف عيفا إِذا حامت على المَاء وعاف الرجل الطَّعَام يعافه عيافا إِذا كرهه))** [6]، وبذلك اشتهر العرب بزجر الطير والتفاؤل به أو التشاؤم وقد ضمنوه أشعارهم بكثرة[7].

كما أشار المسعودي إلى أن العرب كانت تتشاءم من بعض الأيام والشهور، فذكر أن العرب تشاءمت من يوم الأربعاء، وكل أربعاء يوافق أربعاً من الشهر، وتشاءمت من شهر شوال فكانوا لا يتزوجون فيه، لذلك عندما جاء الرسولﷺ برسالته تزوج السيدة عائشة في شهر شوال ليبعد هذه الفكرة عن أذهان العرب[8].

لم تقتصر العيافة على عيافة الطير فحسب، وإنما اعتمدت على الحدس، فأتى أبو طالب برسول الله ﷺ وهو غلام مع من يأتيه، ((فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ شَغَلَهُ عَنْهُ شَيْءٌ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: الْغُلَامُ عَلَيَّ بِهِ،

---

(1) **ابن الجوزي(محمد بن أبي بكر بن أيوب)، *زاد المعاد*، (مؤسسة الرسالة، بيروت)، ج5، ص74.**

(2) **ابن فرحون، *تبصرة الحكام*، ج2، ص127.**

(3) **العلي(جواد)، *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*،(دار الساقي، 2004م، ط4)، ج12، ص364.**

(4) **ابن منظور، *لسان العرب*، ج2، ص491، ج19، ص261.**

(5) **الماوردي، *الحاوي الكبير*، ج15، ص127.**

(6) **ابن قتيبة، *غريب الحديث*، ج1، ص403.**

(7) **ابن الأثير، *النهاية في غريب*، ج3، ص330.**

(8) ***مروج الذهب*، ج2، ص126. ابن حجر، *فتح الباري*، ج1، ص213.**

فَلَمَّا رَأَى أَبُو طَالِبٍ حِرْصَهُ عَلَيْهِ غَيَّبَهُ عَنْهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: وَيْلَكُمْ، رُدُّوا عَلَيَّ الْغُلَامَ الَّذِي رَأَيْت آنِفا، فو الله لَيَكُونَنَّ لَهُ شَأْنٌ. قَالَ: فَانْطَلَقَ أَبُو طَالِبٍ))[1].

وسلف القول بشهرة بنو أسد بالعيافة، وبالغ المؤرخون في عيافة بني أسد حتى نسجت عنهم الحكايات، واحترفت النساء أيضاً العيافة، ويتضح مما نقله ابن منظور في رواياته عن قتيله بنت نوفل أخت ورقه بن نوفل التي عرضت نفسها على عبد الله بن عبد المطلب لكنه رفض حيث اشتهرت بالنظر في علم الفراسة(كانت تنظر وتعتاف)[2].

الخاتمة:

يظهر من خلال البحث أن العرب كيفوا علومهم مع طبيعة صحرائهم وطبيعة المشاكل التي اعترضت حياتهم اليومية، كضياع حيواناتهم التي يعتمدوا عليها في مأكلهم ومشربهم، وفقدان احبتهم أو من أجل إلقاء القبض على المجرمين والسراق وشذاذ الأفاق حتى يخففوا من وطأتهم على المجتمع.

نجح العرب في تطوير علم القيافة، ونجحوا في اثبات نسب من التجأ إليهم، بل ونسبوا كثير من الأبناء ممن اختلف الناس في إلحاق نسبهم، ووافق الرسول صلى الله عليه وسلم على قيافتهم، بل جاء في المصادر أن الرسول ﷺنفسه كان قائفاً، والله أعطاه ما لم يعط أحداً، وعمل الصحابة بالقافة أيضاً ولم ينكر أحداً من الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين القافة، بل عملوا بها وأخذوا برأي القافة في اثبات النفس.

عمل العرب بالقيافة، وبرعوا فيها سواء بتقفي الأثر أو بعيافة الطير، أو بالاهتداء بالبراري والقفار، إلا أن الرسولﷺ نهى عن بعض الافعال التي كانوا يفعلونه كالتطير بالطيرة وعدها من الجبت أي من أنواع السحر والكهانة، كما نهى عن بعض العادات كتحريم الزواج في شهر شوال بعد أن تزوج السيدة عائشة في هذا الشهر، أما فيما يتعلق بتقفي الأثر، فقد برعوا فيه واعتمدوه وأوردنا أمثلة عديدة في البحث تثبت صحة ذلك.

في النهاية، لابد من دراسة شاملة ووافية في علم القيافة، لأنه علم له أهمية كبيرة في التاريخ الإسلامي، وعلم برع فيه العرب، وأوجدوا من خلاله حلولاً كثيرةً للعديد من المشاكل المتعلقة بإثبات النسب، واقتفاء أثر الضائعين، وكذلك أعطاهم القدرة على تقفي أثر الفارين من العدالة.

المصادر والمراجع

قائمة المصادر:

1 ـ القرآن الكريم.

2 ـ ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك، *النهاية في غريب الحديث والأثر*، تحقيق طاهر أحمد الزاوي محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت1979م.

3 ـ الألوسي،شهاب الدين محمود، *روح المعاني*، دار أحياء التراث، بيروت.

---

[1] ابن هشام (عبد الملك الحميري)، *السيرة النبوية* ، تحقيق مصطفى السقا واخرون، (مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة1955م)، ط2، ج1، ص180.

[2] ابن منظور (محمد بن مكرم)، *مختصر تاريخ دمشق* ، تحقيق روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد –محمد مطيع، (دار الفكر، دمشق1984م، ط1)،ج2، ص29.

4 -الألوسي،محمود شكري، *بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب* ، تحقيق محمد بهجة الاثري، دار الكتاب المصري، القاهرة.

5 -البخاري، محمد بن إسماعيل، *الجامع المسند الصحيح*، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، 1422هـ، ط1.

6 -الثعالبي، أبو منصور عبد الملك، *ثمار القلوب*، دار المعارف، القاهرة1965م، ط1.

7 -الجاحظ، عمرو بن بحر، *البيان والتبيين*، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423هـ.

8 -ابن الجوزي، محمد بن أبي بكر بن أيوب، *زاد المعاد*، مؤسسة الرسالة، بيروت.

9 -ابن حبان، محمد البستي، *صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان* ، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت1994م، ط2.

10 - ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي، *فتح الباري*، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، إخراجه وتصحيح محب الدين الخطيب، تعليق عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة، بيروت1379هـ.

11 - ..... *الإصابة في تمييز الصحابة* ، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية. بيروت، 1415هـ.

12 -ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، *تاريخ ابن خلدون*، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت 1988م، ط2.

13 -ابن دريد ، أبو محمد الازدي ، *جمهرة اللغة* ، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت1987م، ط1.

14 -ابن دقيق العيد ، *إحكام الأحكام* ، تحقيق مصطفى شيخ مصطفى – مدثر سندس، مؤسسة الرسالة، 2005م، ط1.

15 -الذهبي، شمس الدين، *سير أعلام النبلاء*، دار الحديث، القاهرة، 2006م.

16 -الزمخشري، أبو القاسم محمود، *الكشاف*، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

17 -الزبيدي، محمد بن محمد مرتضى، *تاج العروس*، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية.

18 -ابن سالم المشعبي ، عبد المجيد ، *التنجيم والمنجمون وحكم ذلك في الإسلام* ، أضواء السلف، الرياض1998م، ط2.

19 -ابن شبة، النميري البصري، *تاريخ المدينة*، تحقيق علي محمد دندل وياسين سعد الدين بيان، دار الكتب العلمية، بيروت 1996م.

20 -الشرواني، عبد الحميد المكي، *حواشي الشرواني*، دار الفكر، بيروت.

21 -الشنقيطي، محمد الامين بن محمد الجكني، *أضواء البيان*، دار الفكر، بيروت1995م.

22 -الصفدي، صلاح الدين خليل ، *الوافي بالوافيات* ، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار أحياء التراث، بيروت 2000م.

23 -ابن عبد المحسن السلمان ، عبد العزيز بن محمد ، *موارد الظمآن لدروس الزمان* ، طبع على نفقة جماعة من المحبين للخير، الموكل عنهم: إبراهيم بن علي العودة، 1424هـ، ط30.

24 -ابن عجيبة ، الحسني الأنجري ، *البحر المديد في تفسير القرآن المجيد* ، تحقيق أحمد عبد الله القرشي رسلان، القاهرة1419هـ.

25 -ابن عساكر ، أبو القاسم علي، *تاريخ دمشق*، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت1995م.

26 -العيني، بدر الدين، *عمدة القاري*، دار أحياء التراث، بيروت.

27 -ابن فرحون، إبراهيم بن علي اليعمري، *تبصرة الحكام في اصول الاقضية ومناهج الحكام* ، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة1986م، ط1.

28 -ابن قاسم ،عبد الرحمن النجدي، *حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع*، 1397هـ، ط1.

29 -ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله الدينوري ، *غريب الحديث* ، تحقيق عبد الله الجبوري، مطبعة الغاني، بغداد1397م، ط1.

30 – ابن قيم الجوزي ، محمد بن أبي بكر الزرعي، *مدار السالكين بين منازل اياك نعبد واياك نستعين* ، تحقيق عدد من المحققين، دار الصميعي، الرياض2011م.

31 -ابن القيم، محمد بن أبي بكر ، *الطرق الحكمية*، مكتبة دار البيان، د.ط، د.ت.

32 -القنوجي، أبو الطيب صديق خان ، *أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم* ، تحقيق عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية، بيروت1978م.

33 -ابن ماجة، أبو عبد الله محمد القزويني ، *سنن ابن ماجة*، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي_ فيصل عيسى البابي الحلبي، دار إحياء الكتب العربية.

34 -ابن محمد الفائز ،إبراهيم، *الإثبات بالقرائن في الفقه الإسلامي*، بيروت1403هـ.

35 -ابن منظور ،محمد بن مكرم، *لسان العرب*، دار صادر، بيروت، د.ت، ط1.

36 -ابن منظور ،محمد بن مكرم، *مختصر تاريخ دمشق*، تحقيق روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد–محمد مطيع، دار الفكر، دمشق1984م، ط1.

37 -الماوردي، أبو الحسن علي البصري ، *الحاوي الكبير* ، تحقيق علي محمد معوض–عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت 1999م، ط1.

38 -المسعودي،أبو الحسن علي، *مروج الذهب ومعادن الجوهر*، تحقيق: أسعد داغر، دار الهجرة، 1409هـ.

39 -مسلم، أبو الحسن القشيري ، *المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم*، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

40 -مصطفى، إبراهيم وأخرون، *المعجم الوسيط*، تحقيق مجمع اللغة العربية، دار الدعوة.

41 -المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف، *فيض القدير*، دار الكتب العلمية، بيروت1994م، ط1.

42 -الهاشمي، أحمد بن إبراهيم ، *جواهر الأدب في ادبيات وانشاء لغة العرب* ، تحقيق لجنة من الجامعيين، مؤسسة المعارف، بيروت.

43 -ابن هشام، عبد الملك الحميري ، *السيرة النبوية* ، تحقيق مصطفى السقا واخرون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة1955م، ط2.

44 -أبو يحيى السنيكي، زكريا بن محمد، *الغرر البهية في شرح البهجة الوردية*، المطبعة الميمنية، د.ت.

قائمة المراجع:

1 -برو، توفيق: *تاريخ العرب القديم*، دار الفكر، سوريا2001م، ط2.

2 -بلمهدي، يوسف: *أحكام القيافة وتتبع الأثر*، مجلة المعارف، العدد الثامن، جوان2010م.

3 -خليفة، حاجي: *كشف الظنون*، مكتبة المثنى، بغداد1941م.

4 -الركبان، عبد الله العلي: *النظرية العامة لإثبات موجبات الحدود*.

5 -رولان برث: *مبادئ في علم الأدلة*، ترجمة محمد البكري، دار قرطبة للطباعة والنشر، المغرب.

6 -الزحيلي، وهبة: *الفقه الإسلامي*، دار الفكر، دمشق، ط4.

7 -سارطون، جورج: *تاريخ العلم عند العرب*، مصر1971م.

8 -ضيف، شوقي: *تاريخ الأدب العربي*، دار المعارف، القاهرة.

9 -العلي، جواد: *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، دار الساقي، 2004م، ط4.